تعقيب على بحث «حول كتاب خلق الإنسان»

لأبي محمد الحسن بن أحمد بن عبد الرحمن

د. إحسان النص

ابتداءً أنا أشكر الدكتور الإصلاحي على ما أبداه من ملاحظات حول البحث الذي نشرته في الجزء الثاني من المجلد الثالث والسبعين من مجلة المجمع وعنوانه: «مصنفات اللغويين العرب في خلق الإنسان»، وحول التحقيق الذي قام به الدكتور أحمد خان لكتاب «خلق الإنسان في اللغة» لأبي محمد الحسن بن أحمد بن عبد الرحمن.

وتحرّي الحقائق العلمية والتاريخية غاية كل من يسعى وراء المعرفة الصحيحة والعلم اليقيني. على أنني أود أن أسجل ما عنّ لي بعد قراءة بحث الدكتور الإصلاحي ما دمنا نسعى جميعًا إلى الغاية المنشودة وهي تحرّي الحقائق.

١- أولى الملاحظات التي ذكرها الباحث الفاضل ذهابه إلى أن الحسن بن محمد الصغاني ليس له مصنف في موضوع خلق الإنسان، متابعًا في ذلك ما انتهى إليه الدكتور أحمد خان، محقق كتاب «خلق الإنسان في اللغة» للحسن بن أحمد بن عبد الرحمن، ومردّ هذا الخطأ إلى ورود هذا الكتاب في نهاية مجموعة تضم تسعة مؤلفات للصغاني في مخطوط موجود في خزانة مراد آغا بمكتبة السليمانية في اصطنبول، وهو المصنف العاشر منها، فخُيّل إلى بروكلمان أن المصنفات العشرة هي من تأليف الصغاني، فذكره في كتابه تاريخ الأدب العربي، وتابعه في ذلك عدد من الباحثين المحدثين.

إنني اطلعت على مقدمة كتاب خلق الإنسان في اللغة ووافقت محقق الكتاب الدكتور أحمد خان في نفيه أن يكون هذا الكتاب من تأليف الصغاني،

ومع ذلك فقد ذكرت أن للصغاني كتابًا في خلق الإنسان في عداد مَنْ صَنَّفوا في هذا الموضوع، وذلك من قبيل الترجيح لا القطع، لأنني وجدت كثرة علماء اللغة البارزين قد صنفوا كتبًا أو أبوابًا في هذا الموضوع، والصغاني كان قمة في علم العربية، فمن المرجح أن لا يفوته تناول هذا الموضوع في مصنفاته، ويحتمل أن كتابه فقد فيما فقد من تراثنا، ويقوي هذا الترجيح أن طائفة من العلماء القدامى قد نسبت إلى الصغاني كتابًا في هذا الموضوع ومنهم محمد بن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، وشهاب الدين الخفاجي (ت١٠٦٩هـ)، وهؤلاء المصنفون لم يقفوا قطعًا على المخطوطة التي وجدت في مكتبة مراد آغا، فما هو المصدر الذي رجعوا إليه في إثباتهم للصغاني كتابًا في خلق القرآن؟ وهل كان بين أيديهم كتاب للصغاني في هذا الباب ثم فقد؟ من المتعذر أن نصدر رأيًا قاطعًا في هذا الأمر ولذلك يبقى الترجيح في كون الصغاني ألف كتابًا في خلق الإنسان قائمًا.

وقد نسب كثير من الباحثين المحدثين إلى الصغاني كتابًا في خلق الإنسان، ومنهم: حسين نصار في كتابه «المعجم العربي»، وأحمد الشرقاوي إقبال في كتابه «معجم المعاجم»، وعزة حسن، وقهر محمد حسن في مقدمة كتاب «العباب الزاخر» للصغاني. ويحتمل أنهم تابعوا بروكلمان في هذا الأمر.

وقد أثبت الدكتور أحمد خان في مقدمة كتاب «خلق الإنسان في اللغة» أسماء من صنفوا في موضوع خلق الإنسان فلم أتحقق من أن جميع من ذكرهم لهم مصنفات في خلق الإنسان... منهم على سبيل المثال أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي (ت٢٥١هـ)، وأبو الحسن الأثرم علي بن المغيرة (ت٢٣٢هـ)، ولم يذكر لنا محقق الكتاب المصادر التي استقى منها أسماء من صنفوا في خلق الإنسان.

٢- خالفت في بحثي الدكتور أحمد خان، محقق كتاب «خلق الإنسان في اللغة»، فيما ذهب إليه من أن مؤلف الكتاب عاش في «مرحلة ما بين الفترة من منتصف القرن الرابع حتى أوائل القرن السابع»، ورجحت أنه عاش ما بين نهاية القرن الرابع الهجري ومنتصف القرن الخامس، واستدللت على ذلك بأمور، منها أنه لم يذكر في كتابه أنه أخذ عن ابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ في كتابه «المخصص»، فقد أفرد لموضوع خلق الإنسان فصلاً كبيرًا من كتابه، وقد وافقني الباحث الفاضل الدكتور إصلاحي في أن مؤلف الكتاب عاش في حقبة تمتد من أواخر القرن الرابع حتى القرن الخامس، ولكنه ذهب إلى أنه ليس من المحتم أن يأخذ المؤلف عن ابن سيده ولو أنه عاش بعده، وأنا أخالفه فيما ذهب إليه مخالفة قاطعة، فلم يكن المؤلف ليغفل كتاب ابن سيده لو وقف عليه، فهو أعظم معجم ألف في المعاني، وقد طبقت شهرته الآفاق، وبحثه في خلق الإنسان أوسع بحث في بابه، ولو وقف عليه المؤلف لنقل منه أشياء كثيرة تضاف إلى ما ذكره هو.

٣- وأخيرًا كنت أتوقع، وقد عني الأستاذ الفاضل بكتاب «خلق الإنسان في اللغة»، أن يضيف حقائق جديدة إلى ما سبق أن ذكره محقق الكتاب، وإلى ما ذكرته أنا من عدم العثور على ترجمة لمؤلف الكتاب، وظللنا حتى الآن نجهل كل شيء عن سيرته وتاريخ وفاته، ولو أنه فعل لاستحق عظيم شكرنا، ويُخيّل إليّ أن مؤلف الكتاب ينبغي أن لا يكون مجهولاً لمصنفي كتب التراجم الذين جاؤوا بعده، ويحتمل أنه كان أحد علماء اللغة المعروفين ولكن وقع خطأ ما في بيان اسمه، ولعل الأيام المقبلة تسمح بمعرفة المزيد عن مؤلف هذا الكتاب .